(الأزمة وغلاء الأسعار)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبي اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللَّهم صلِّ على سيّدنا محمَّد وعلى أله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء:29].

ويقول سبحانه: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ [هود:84]،

أخرج ابن جريرٍ وأبو الشيخ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنه فسر الخير برخص السعر والعذاب بغلائه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ دَخَلَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَسْعَارِ الْمُسْلِمِينَ لِيُغْلِيَهُ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ حَقًّا عَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يُقْعِدَهُ بِعُظْمٍ** –أَيْ: بِمَكَانٍ عَظِيم– **مِنْ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» [رواه أحمد].

وقال صلى الله عليه وسلم: «**مَنِ احْتَكَرَ طَعَامًا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَبَرِئَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ**» [رواه أحمد].

وفي الأثر: «بِئْسَ الْعَبْدُ الْمُحْتَكِرُ، إِذَا أَرْخَصَ اللهُ الْأَسْعَارَ حَزِنَ، وَإِن أغلاها فَرِحَ» [رواه البيهقي].

عنوان خطبة اليوم:

(الأزمة وغلاء الأسعار)

أيها الإخوة:

مما أفرزته الأزمة التي نعيش –والتي نسأل فارج الهمّ كشفها– غلاء الأسعار، سواء في المواد الأولية أو المصنعة، المحلية أوالمستوردة، الضرورية أو الحاجية وغيرها.

وامتدت يد الغلاء لتطال لقمة العيش الرئيسة للناس، وقُلْ مِثْلَ ذلك في المحروقات والمنظفات والألبسة والأدوية وايجارات البيوت...

أصدر المكتب المركزي للإحصاء دراسةً بيَّنت ارتفاع مؤشر الأسعار في المحافظات السورية كلها، حيث تصدرت حلب ارتفاعات الأسعار في سورية, فيما كان أقلها ارتفاعاً في محافظة ريف دمشق.

هذا الغلاء يسبب عجزَ الناس عن توفير حاجاتهم الأساسية، ويساعد في تحول نسبةٍ كبيرةٍ من الطبقة متوسطة الدخل إلى الطبقة الفقيرة، وربما دفع بعض الناس غير المنضبطين بالشرع للحصول على المال بطرقٍ محرمةٍ كالسرقة والرشوة.

ولا تقتصر مشكلة الغلاء على بلدنا، بل هي مشكلةٌ عالميةٌ وصفت بالتسونامي، لكن الأزمة عندنا ضاعفت وطأتها مراتٍ ومراتٍ.

والناظر في كتب تواريخ البلدان يقرأ حوادث غلاء الأسعار ضمن الحوادث المهمة التي يسطرها المؤرخون:

حكى صاحب كتاب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) في أواخر عهد بني العباس: عظم الغلاء ببغداد في شعبان، حتى أكلوا اللحوم التي لا تؤكل، وكانت الأقوات في غاية القلة والغلاء، وبيع العقار بالرُّغْفان –أرغفة الخبز–، وهرب الناس إلى بلدان أخرى، فماتوا في الطريق.

وروى المقريزي في وصف حال زمانه -زمن الدولة المستنصرية العبيدية في مصر- في منتصف القرن الخامس الهجري، قال: (آل الأمر إلى أن باع المستنصر كلَّ ما في قصره من ذخائرٍ وثيابٍ وأثاثٍ وسلاحٍ وغيره، وصار يجلس على الحصير).

أيها الإخوة:

لغلاء الأسعار أسبابٌ ماديةٌ وإيمانيةٌ أسرد عليكم بعضها، لأنتقل منها إلى عرضِ بعض المساعدات المعينة على التخفيف من حدة المشكلة.

من الأسباب المادية لغلاء الأسعار:

- تغير الأوضاع الأمنية وتأثيرها في السلع الزراعية والصناعية والتجارية من حيث تدميرها أو تقليل إنتاجها.
- الحظر الاقتصادي.
- انخفاض سعر النقد.
- عدم توفر المواد الأساسية مع كثرة الطلب على السلع.
- تهافت الناس على الشراء بأي سعرٍ كان، نتيجة لتعودهم على أنماط استهلاكية معينة.
- تأثُّر بعض المواد بالغلاء العالمي أصلاً.
- وجود المعامل في مناطق غير آمنة.
- انخفاض الإنتاج بسبب سوء الخدمات (الكهرباء - المازوت - الغاز..)، وارتفاع كلفة النقل والشحن، نظراً لارتفاع أسعار المحروقات وخطورة الطريق.
- ضعف الرقابة على السوق.
- احتكار بعض التجار للسلع.
- استغلال عدد من ضعاف الإيمان كل ماسبق للتمادي في المغالاة ورفع الأسعار، عن الحسن رضي الله عنه قال: (كَفَى غِشًّا لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَمَنَّى غَلَاءَ سِعْرِهِمْ) [البيهقي في شعب الإيمان].

هذا عن الأسباب المادية لغلاء الأسعار، أما

الأسباب الإيمانية فمنها:

- ذنوبٌ أصرَّ عليها بعضنا، من ترك صلاةٍ، أو زكاةٍ، أو عقوق والدين، أو أكل ميراث قريبٍ، أو نظرٍ إلى حرامٍ، أو تمادي في الظلم والاعتداء...، كان من عقابها في الدنيا قلة الأرزاق وغلاء الأسعار، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى:30].
- ولوغ كثيرٍ من الناس في المعاملات المالية المحرمة وعلى رأسها الرِّبا.
- قلة التراحم: ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ الأَرْضِ، يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**» [رواه الترمذي وأبو داود].

روى القرطبي في تفسيره أن تاجراً كان بواسط، فجهز سفينة حنطةٍ إلى البصرة، وكتب إلى وكيله: بع الطعام يوم تدخل البصرة، ولا تؤخره إلى غدٍ، فوافق سعةً في السعر، فقال التجار للوكيل: إن أخرته جمعةً ربحت فيه أضعافه، فأخره جمعةً فربح فيه أمثاله، فكتب إلى صاحبه بذلك، فكتب إليه صاحب الطعام: يا هذا! إنا كنا قنعنا بربحٍ يسيرٍ مع سلامة ديننا، وقد جنيت علينا جنايةً، فإذا أتاك كتابي هذا فخذ المال وتصدق به على فقراء البصرة، وليتني أنجو من الاحتكار كفافاً لا علي ولا لي.

هذه -أيها الإخوة- أهم الأسباب المادية والإيمانية لغلاء الأسعار، والفقرة الأخيرة العملية في الخطبة أمور مساعداتٌ في تخفيف وطأة هذه المشكلة عنا.

أمور مساعداتٌ هي من واجب الحكومات، وأمور مساعداتٌ هي من واجب الأفراد منا.

أما واجب الحكومات:

فأهمها رفع الظلم عن المظلومين، ودعم السلع الرئيسية، وخفض رسوم الخدمات المؤثرة في قدرة الطبقتين الفقيرة والمتوسطة، وصرف إعاناتٍ للعائلات الفقيرة، والتأكد من توجه المال العام إلى مكانه الصحيح، والتسعير العادل للسلع، ومراقبة الأسواق والأسعار ومحاسبة المتجاوزين.

وأما على مستوى الأفراد فأقدم هذه الوظائف التسعة أختم بها الخطبة:

1) التقوى والعودة إلى الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:96]، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:2-3].

2) استخدام منتجاتٍ مماثلةٍ ذات سعرٍ منخفضٍ: عن رزين بن الأعرج مولى لآل العباس، قال: غلا علينا الزبيب بمكة، فكتبنا إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالكوفة أن الزبيب غلا علينا، فكتب أن أرخصوه بالتمر.

3) المقاطعة: قيل لإبراهيم بن أدهم: إن اللحم غلا!، قال: (فأرخصوه)، أي: لا تشتروه. ونُقِل مثل هذا الكلام عن سيدنا عمر وعن الإمام مالك.

4) تطبيق فكرة الشراء الجماعي للسلع، في كلِّ أسرةٍ أو شركةٍ أو بناءٍ.

5) زيادة التكافل الاجتماعي، ومن ذلك أن يرضى أحدنا في بيعه وشرائه بالربح اليسير تخفيفاً على العباد وثقة بموعود الله: قيل لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه -وكان من أغنياء الصحابة وأثريائهم-: ما سبب يسارك؟، قال: (ثلاثٌ: ما رددت ربحاً قط، ولا طلب مني حيوان فأخَّرت بيعه، ولا بِعت بنسيئة).

ويقال إنه باع ألف ناقةٍ فما ربح إلا عُقُلها، باع كل عقال بدرهم، فربح فيها ألفاً، وربح من نفقته عليها ليومه ألفاً.

6) ترتيب أولويات الإنفاق: يبدأ بالضروريات، ثم بالحاجيات، ثم الكماليات، والصواب الاستغناء عن هذه الأخيرة في الأزمات.

7) الاقتصاد في الإنفاق عما كان من قبل، ففي الحديث: «**مَا عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ**» [رواه البيهقي وأحمد]، وفي الأثر: «**الاقتصاد نصف المعيشة**».

8) التوكل على الله، وعدم التهافت على التخزين.

9) إعمال أسباب البركة: كالاستغفار، وصلة الرحم، والدعاء، والصدقات.

قحط الناس في زمن أبي بكرٍ رضي الله عنه، فقَدِمَت لعثمان رضي الله عنه قافلةٌ من ألف راحلةٍ من البُر والطعام، فغدا التجار عليه، فخرج إليهم فقال: (ماذا تريدون؟) قالوا: بلغنا أنه قدم لك ألف راحلةٍ بُراً وطعاماً، بعنا حتى نوسع على فقراء المدينة، فقال لهم: (ادخلوا،

فدخلوا)، فقال: (كم تُربِحوني على شرائي؟)، قالوا: العشرة اثنا عشر، قال: (قد زادوني)، قالوا: العشرة أربعة عشر، قال: (قد زادوني)، قالوا: العشر خمسة عشر، قال: (قد زادوني)، قالوا: من زادك ونحن تجار المدينة؟، قال: (زادني الله بكل درهمٍ عشرة، عندكم زيادة؟). قالوا: لا. قال: (فأشهدكم معشر التجار أنها صدقةٌ على فقراء المدينة).

أيها الإخوة:

هذا حديث مختصرٌ عن الأزمة وارتفاع الأسعار، عن الأسباب المادية والإيمانية لها وعن أمورٍ مساعداتٍ تنفع في التخفيف من وطأة غلاء الأسعار.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلُ زَادٍ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ**» [رواه مسلم وأبو داود].

والحمد لله رب العالمين